



كيف أتأصل علميًا؟

فضيلة الشيخ

د. محمد بن غالب العُمري

حفظه الله



ميراث الأندلس

Miraath.Net

الحمد لله، أما بعد:

كثر الكلام بين طلبية العلم في شأن التأصيل العلمي، حتى تبني بعضهم تصورات خاطئة عنه؛ إما تلقوها من غيرهم، وإما بنوها على فهم قاصر لمعناه وطرائق تحصيله.

وقد نشأ عن ذلك إشكالان رئيسان:

الأول: انصراف بعض الطلبة عن طريق علمي صحيح كانوا يسلكونه؛ لقناعتهم الخاطئة بأنهم على غير الجادة، وأن ما يدرسونه لا يحقق التأصيل، فتوقف سيرهم، وضعفت همهم.

الثاني: إطلاق دعاوى جوفاء، يوصف فيها بعض الطلبة بأنه مؤصل في علمه، مؤصل لغيره، وينفى التأصيل عن سواه. حتى امتد هذا الحكم إلى بعض كبار العلماء، فادّعي أنهم غير مؤصلين، ولا يحسنون تأصيل غيرهم.

ولست هنا بصدد معالجة هذا الإشكال بمزيد من التعقيد،



أو بكثرة التفريع والتفصيل؛ وإنما هي وقفات ميسرة، أرجو أن تسهم في توضيح معنى التأصيل، وتنقيته هذا المصطلح مما لحقه من غلو أو تفريط.

والمقصود بالتأصيل العلمي: بناء معرفة منضبطة بأصول العلم وقواعده ومسائله الأساسية، مع فهمها، ومعرفة وجه ارتباط بعضها ببعض، والتدرج فيما وراءها.

فحفظ المتون ودراسة الكتب من وسائل التأصيل، وإنما تتحقق ثمرته بضبط ما يُدرس وفهمه. كما أن التأصيل لا ينحصر في برنامج واحد، ولا يصح نفيه عن سلك طريقاً علمياً معتبراً لمجرد اختلاف برنامجيه عن برنامج غير.



وقبل بيان هذه الوقفات، ينبغي التأكيد على أن العناية بكتاب الله حفظاً وفهماً أصل في طلب العلم، وأن البدء بحفظه هو الجادة التي ينبغي أن يحرص عليها الطالب. فإن لم يتيسر له إتمام حفظه قبل الشروع في الطلب، جمع بين العناية بالقرآن وتعلم العلم، ولم يجعل عدم إتمام الحفظ عائقاً عن الطلب.

وقد جعلت ما يتعلق بالتأصيل في عشر وقفات:



١ الوقفة الأولى

التدرج في الطلب:

الأصل في تعلم العلوم أن يبدأ الطالب بأيسرها وأقربها إلى فهمه، ثم يتدرج إلى ما بعدها؛ فيأخذ صغار العلم قبل كباره، ويبني اللاحق على السابق.

وفي طلب العلم الشرعي يتحقق ذلك بالبداية بالمتون المختصرة المناسبة لمستواه، مع الحرص على حفظها وفهمها وضبط مسائلها، ثم الانتقال إلى ما هو أوسع منها، بحسب حاجته واستعداده، وبتوجيه من يحسن إرشاده.

ولا يستعجل الطالب المطولات ودقائق الخلاف قبل ضبط الأصول؛ فإن كثرة المعلومات مع ضعف الأساس قد تزيده تشتتاً، وتضعف قدرته على فهم المسائل ورد بعضها إلى بعض.



٢ الوقفة الثانية

التلقي عن أهل العلم:

لا بد للطالب، ولا سيما في بداياته، من شيخ متقن يحسن التعليم؛ يفك العبارة، ويوضح المصطلح، ويحرر المسألة، ويبين المقصود، ويصل جزئيات العلم بأصوله وقواعده.

أما استقلال المبتدئ بالكتب، مع ضعف آله وغياب التوجيه، أو تلقيه عن من لم يضبط العلم الذي يدرسه؛ فقد يورثه سوء الفهم، وتشتت التصور، والخلل في ترتيب المسائل ومعرفة مراتبها.

والقراءة في الكتب من أهم وسائل التحصيل، ويزداد الانتفاع بها مع التلقي والتوجيه، حتى تقوى آلة الطالب، ويحسن فهم ما يقرأ، ويميز ما يحتاج إلى سؤال ومراجعة.



٣ الوقفة الثالثة

الاستمرار وإتمام ما بدأت؛

اجتهد في الاستمرار، وعود نفسك المواظبة؛ فإن كثرة التنقل بين الكتب والبرامج، وترك ما بدأته دون حاجة معتبرة، يبددان الجهد، ويؤخران التحصيل.

وقد يمضي على الطالب زمن طويل، وهو يعيد البدايات، وينتقل من برنامج إلى آخر، دون أن يتم ما شرع فيه؛ فيكثر انشغاله، وتقل ثمرته.

والمقصود أن تستمر في طريق مناسب لمستواك وحاجتك؛ أما الانتقال لتصحيح مسار، أو لحاجة علمية، أو بتوجيه من شيخ متقن، فقد يكون من حسن الطلب.

واحذر طول الانقطاع؛ فإنه يضعف استحضار ما

درست، وقد يحوجك إلى استدراك

ما نسيت، وربما إلى إعادة بعض ما

سبق، فيطول الطريق، وتضعف

الهمة.



٤ الوقفة الرابعة

مراعاة مستواك وحاجتك:

إياك ومحاكاة برامج غيرك دون مراعاة مستواك وحاجتك؛ فغيرك قد سبقك بمراحل، فيصلح له ما لا يصلح لك، وقد تكون أنت قد تجاوزت ما يدرسه، فتؤخر نفسك بالعودة إليه دون حاجة.

استفد من تجارب الآخرين، واقتد بحسن صنيعهم، مع مراعاة ما يناسب قدراتك ووقتك وما سبق لك تحصيله.

وانظر فيما تحتاج إلى ضبطه واستكمالها، واستشر أهل العلم إذا خفي عليك وجه الانتفاع، أو التبس عليك ترتيب ما ينبغي تقديمه وتأخير.

والعمر محدود؛ فأحسن استثماره، واحذر أن تضعه في تكرار لا تحتاج إليه، أو قفز إلى ما لم تنهياً له.



٥ الوقفة الخامسة

المراجعة وترسيخ العلم:

اعتن بمراجعة ما درست، ولا تكتف بسماع الشرح أو تقييد الفوائد؛ فإن طول العهد بالعلم، مع ترك مراجعته، مظنة نسيانه.

وأي تأصيل يتحقق لمن غايته كتابة الفائدة، ثم لا يعود إليها شهوياً، بل أعواماً؟ وإذا سئل عما درس، عدد عناوين الكتب، وقد نسي مسائلها ومضامينها! واجعل للمراجعة نصيباً ثابتاً من وقتك؛ تستحضر فيه المسائل، وتلخصها بعبارتك، وتختبر فهمك لها بالأمثلة والتطبيقات المناسبة، وتسأل عما أشكل عليك؛ فإن العلم يرسخ بفهمه وتعهده، وتظهر ثمرة دراسته بحسن استحضاره والانتفاع به.



٦ الوقفة السادسة

ضبط المصطلحات وتصور المسائل:

اعتن بفهم مصطلحات كل علم؛ فإنها مفاتيح مسائله، وقد يقرأ الطالب العبارة ويحفظها، ثم يفهمها على غير مراد أهل ذلك الفن؛ لجهله بمعنى المصطلح أو حدود استعماله.

ولا تتجاوز مسألة حتى يتضح لك معناها، وتعرف صورتها، وتميزها عما يشابهها. واستعن على ذلك بالأمثلة، وعبر عن المسألة بعبارتك، ثم اعرض فهمك على شيخك؛ فقد يكشف هذا عن خلل لم يظهر لك عند القراءة أو السماع.

وصحة تصور المسألة أساس لفهم حكمها ودليلها، وما يتصل بها من تفصيل وخلاف.



٧ الوقفة السابعة

العناية بالأدلة ووجه الاستدلال؛

اعتن بأدلة المسائل على قدر مرحلتك، وافهم وجه الاستدلال بها؛ فإن معرفة الدليل مع فهم صلته بالمسألة تثبت العلم، وتكشف مأخذ الحكم، وتعين على إدراك طريقة أهل العلم في تقريره.

ومجرد حفظ النص لا يكفي لفهم وجه الاستدلال؛ فقد يكون موضع الدلالة في لفظ منه، أو في سياقه، أو في ضمه إلى نص آخر.

ولا يلزم المبتدئ استقصاء أدلة كل مسألة ومناقشة ما ورد عليها؛ وإنما يأخذ من ذلك ما يناسب مستواه بتوجيه شيخه، ثم يتوسع فيه حين تقوى آله، ويستقيم فهمه.



٨ الوقفة الثامنة

إحكام علوم الآلة بقدر الحاجة؛

للعلوم الشرعية أدوات تعين على فهمها وضبطها؛
فاللغة العربية تعين على فهم دلالات الكلام،
وأصول الفقه تعين على فهم طرائق الاستدلال،
ومصطلح الحديث يعين على فهم أحكام أهل
الحديث ومراتب الروايات.

فخذ من هذه العلوم ما يحتاج إليه بناؤك العلمي،
وتدرج فيها كما تتدرج في غيرها، ولا تهملها حتى
تتراكم عليك مواضع الإشكال بسبب ضعفك
فيها.

واحذر أن تستغرق في دقائقها قبل إحكام أصولها،
أو أن يطول اشتغالك بها مع إهمال توظيفها فيما
تدرسه؛ فإن ثمرة تعلم الأداة تظهر بحسن استعمالها.



جمع النظائر ورد الفروع إلى الأصول:

إذا ضبطت جملة من مسائل العلم، فاعتن بمعرفة الروابط بينها؛ واجمع المسائل المتشابهة، وتأمل ما يجمعها من أصل أو قاعدة، وما يميز بعضها عن بعض من قيد أو شرط.

فهذا ينقل الطالب من حفظ مسائل متفرقة إلى فهم بناء العلم، ويعينه على استحضار ما درس، وإدراك أسباب الاتفاق والاختلاف بين المسائل.

ويكون ذلك على قدر مرحلتك، وبالرجوع إلى تقارير أهل العلم؛ فلا تتعجل وضع القواعد، أو إلحاق مسألة بأخرى لمجرد تشابه ظاهر، حتى تعرف وجه الجمع، وتبين الفروق المؤثرة.



١٠ الوقفة العاترة

اختبار التحصيل ومعرفة مواضع النقص:

لا تجعل مضي الوقت في الطلب، أو إتمام الكتب، دليلاً كافياً على إحكام العلم؛ بل اختبر تحصيلك بين حين وآخر: هل تستطيع شرح ما درست بعبارة واضحة؟ وهل تميز بين المسائل المتشابهة؟ وهل تعرف أصول الباب وأهم قيوده؟

واستعن على ذلك بأسئلة شيخك، والمذاكرة المنضبطة مع زملائك، والإجابة عن التطبيقات المناسبة لمستواك؛ فإنها تكشف مواضع القوة والضعف، وتعينك على توجيه المراجعة.

وإذا ظهر لك نقص فاستدركه، ولا تستنكف من السؤال أو العودة إلى مسألة لم تضبطها؛ فإن معرفة موضع الخل وإصلاحه من أسباب رسوخ العلم وحسن التأصيل.



هذه وقفات يسيرة، أرجو أن تصادف راغباً في فهم
التأصيل، أو محتاجاً إلى تصحيح مساره وإحسان سيره.
ولا تجعل الانشغال بالحكم على نفسك أو غيرك
بالتأصيل صارفاً لك عن تحصيله؛ فأقبل على ما
ينفعك، واضبط ما تدرسه، وتدرج فيه، واستعن
بالله، وصدق في الطلب.

وكلام أهل العلم في هذه المعاني كثير، وإنما
قصدت إلى تذكير موجز، قريب العبارة، واضح
المقصد.

والله أسأل أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل،
والعلم النافع، وأن يوفقنا، ومن قرأ، ومن نحب،
والمسلمين، للهدى والسداد.

كتبه محمد بن غالب العمري

المصدر: قسم المقالات بموقع ميراث الأنبياء





ميراث الأنبياء

Miraath.Net

✕ @MiraathNet

📷 @Miraath_Net

📌 MiraathF

Telegram @Miraathalanbeyaa

YouTube MiraathNetTV

حقوق الطبع محفوظة لموقع ميراث الأنبياء